دراسات في الأدب الانكليزي

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعه الطوال

تمهيد

لقد كانت انكلترا قبل الحكم الأليزبثي غارقة في بحر خضم من الحروب الدينية والمنازعات المذهبية، وكان أدباؤها منقسمين إلى عديد البطانات السياسية المتضادة التي كانت لا تفتأ تتناحر فيما بينها على اجتذاب حبل الرأي في الأمة، ومقاليد الأمور في الحكومة، والمراكز الملحوظة في السيادة، وصرفتهم هذه الحروب الدينية السياسية عن طبيعتهم، واجتاحتهم إلى ميادينها الدامية، كما يجتاح السيل الآتيُّ قطعة من الخشب، أو قصبة من القش. فلا عجب إذا تضيقت شمس الشعر — في انكلترا — للمغيب، ولا عجب أيضاً إذا تعطلت في الناس أخيلتهم المتوثبة، ومشاعرهم المشبوبة، وصدورهم المليئة بالأحاسيس الوثابة، والعواطف الجياشة، إذ ليس في البيئة السياسية ثمة ما يغذي هذه الأمور، أو يثير أسبابها ويوقد جذوتها

وما هو إلا أن اعتلت اليصابات سدة العرش، وتسنمت عاليها وتقلدت بيدها الحديدية زمام المملكة وأعنتها، حتى سارت في خطتها على البادئ القويمة اللاحزبية، فأباحت الناس على مختلف طبقاتهم ومللهم الحرية المطلقة في معتقداتهم، فخمد بذلك روح التناحر المذهبي — ولو إلى حين — وانفرط عقد هذه البطانات السياسية المتضادة، إذ قطع التسامح الديني الذي أوجدته اليصابات أسباب تضادها، فاستيقظت مشاعر الشعراء وعواطفهم على هدوء ريح هذا التعصب المذهبي الممقوت، وأخذت أخيلتهم المتوثبة تتحرر من أصفادها وقيودها التي كبلتها بها البيئة السياسية مدة من الزمن ليست بالقصيرة. وقد ساعد على هذه النهضة المباركة ذوق الملكة الأدبي، إذ استندت الأدباء إلى قصرها وقربت الشعراء من بلاطها، فكان عملها هذا وتشجيعها للأدباء بمثابة التعويض العادل للآداب عما خسرته تحت نقع تلك الحروب المذهبية — السالفة الذكر — التي خلقها بكالب الكاثوليك والبروتستنت على السيادة

وما هي إلا فترة من الزمن حتى توفيت اليصابات، فأخذ الأدباء عامة، والشعراء خاصة، ينحتون سبلهم الوعرة في صخر السياسة الأصم بكل عناء وجهد، إذ كان موتها كالريح الهادئة أذكت سعير تلك النار المذهبية الخامدة، فعادت النفوس إلى شنشنتها القديمة من التخاذل والانقسام الديني. والتف الأدباء ثانية، كل حول بطانة خاصة، يناصرها في الجهر والخفاء، ويذود عنها بلسانه وقلمه، وإذ كان الدين علة هذا الانقسام وسبب تحزب هذه الأحزاب، فقد كان نتاج الأدباء إذ ذاك، متسما بالميزات الدينية، والمظاهر الحزبية. وخير من نلتمس هاتين الظاهرتين بوضوح وجلاء في آثاره « جون ملتون » وهو الذي سنعرض لدراسته في هذه الكلمة العجلى

شخصيته وحياته

لملتون شخصية فذة محاطة بستر كثيف من الغموض والابهام، ليس من الهين علينا خرقه؛ يدل على ذلك: تشعب الأحكام فيه، وتباين وجهات النظر إليه، وتناصر الآراء عليه. فبينا نرى المعجبين بسمو شخصيته، والمفتونين بسحر شاعريته، يوغلون في تقديسه وتبجيله، ويبوؤونه وشكسبير سناما واحد من الشهرة والعظمة ولا يرون « لفردوسه » في الشعر مثيلاً إلا بالرجوع إلى الإلياذة والأوذيسة — إذ بالكثيرين من خصومه يجردونه من جميع مواهب الشاعرية السامية، ويجهدون الفكر في تسقط سقطاته، وتقصي هفواته، والاحاطة بكل مامن شأنه ان ينتقص من شاعريته وينال من شخصيته. أما الفريق الأول فزعيمهم « وليم هزلت »، وأما الفريق الثاني فعلى رأسهم « جونسون »؛ ولا تظهر الحقيقة بين حالتي الاغراق في الاعجاب، والتحذلق في التغرض إلا مجسمة مكبرة، ومشوهة ملفقة، فلا عجب إذا قلنا إن ملتون كان ولم يزل غامض الشخصية، مكتوم الطوية. ونحن إذ نعرض له بمثل هذه الكلمة العجلى، فلسنا ندعي أن فيها فصل الخطاب الذي لا يرد، ولا التوفيق بين مختلف هذه الأقوال المتبلبلة والأحكام المتشعبة، وإنما نريد توجيه اهتمام الناقدين، وجهود الباحثين إليه، وعرض

مختلف المقالات فيه ، تاركين — ما أمكن — للقارىء الكريم الحرية فى إماطة غثها من سمينها

* * *

ولد ملتون فى « برودستريت » بلندن ، وكان والده كاتباً ؛ وإذ كان من أهل اليسر والرخاء فقد كان شديد الرغبة فى تعليمه تعليماً جامعياً عالياً . ولقد كانت طفولته النادرة تنبىء بما سيكون له من المجد المخبوء فى جوف المستقبل ، وليس أدل على طموحه وعبقريته وتحفزه للوثوب إلى قمة المجد من تلك القطوعات الشعرية الجميلة التى نظمها وهو لا يزال بعد فى ربيع صباه ، تائهاً بكبرياء فتونه

كان ملتون طويل القامة ، ساهم الوجه ، شتيت الثغر ، أبلج الحاجبين ، ذا عينين نجلاوين ، أشم الأنف ، سخامي الشعر رجله ، مليح الفم ، معتدل الأعضاء ، وكان (كما روى عنه) بارع الجمال ، تمشق منظره العين ، وترتاح لحديثه النفس ، وهو — إلى جانب ذلك كله ، مزهو بنفسه معجب بخلقه ، وممتد بذكائه ، تشهد بذلك آثاره العديدة ، وأساليبه الشعرية المستعصية ؛ وما أسلوب الشاعر فى قصيدته إلا صورة لطبعه ، ومرآة لأخلاقه

مكث ملتون فى بيت والده فى « هارتون » حتى منتصف العقد الثانى من عمره ، حيث عاش تحت كنفه عيشة مترفة رخية ، لا ترنق صفوها الأكدار والأحزان ، ولا تعبث بهنائها الهموم والأشجان ، فشب محباً للحرية ، وما من شىء يضع فى جذوة نفسه المتوقدة ، أو يفل من شباة عزيمته المتحفزة ، وإذ ليس من شاغل يشغله بأمور عيشه ، فقد كان منصرفاً إلى افتعال الشعر والعبث به ، وإلى احتذاء أساليب أفذاذ الشعراء فى القريض . وفى عام ١٦٢٤ أدخله والده مدرسة University of christ فى كمبردج ، فأقبل على الدرس لا يلوى عنه إلا حين يجهده الفكر ، فنال بذلك استحسان معلميه ومديح عارفيه ، إذ بز جميع أقرانه ، واشتهر بين سائر لداته بذكائه اللامع ، وفطنته المتوقدة . وفى عام ١٦٣٢ أنهى علومه الجامعية ونال درجة M.A السامية فغادر كمبردج راجعاً إلى بيته فى هارتون ، حيث أكب على مطالعة الآداب الكلاسيكية مدة خمس سنوات تمكن فى خلالها من الاحاطة بجميع ما فيها من رائع النثر وجيد الشعر . أما اللغة الانكليزية ، فقد بلغ اطلاعه عليها حد الاحاطة بجميع أوابدها المستعصية . وليس أدل على ذلك من مطالعة ملحمته الشهيرة المعروفة « بالفردوس المفقود » إذ تحتاج فى كل صفحة إلى الاستعانة بالمعجم عشرات المرات

وبعد أن قضى فى هارتون خمس سنوات فى الجد والمطالعة ، أخذ يطوف فى أنحاء أوربا ، ويتنقل بين مدنها العامرة وعواصمها الزاهرة ، فتلقحت بذلك عبقريته بعناصر أدبية جديدة ، وتجلت مواهبه عن جرائم شعرية سامية ، لطفت من عرام نفسه ، ولينت شيئاً من حرونة طبعه ، وزادت فى قيمة إنتاجه . ففى عام ١٦٣٨ ذهب إلى إيطالية ، وكانت إذ ذاك كعبة الأدب ، ومثابة الفن ، وقبلة الشعراء والمتأدبين ، يحجون إليها فى كل عام ليردوا شرعة آدابها الرائعة ، وليروحوا عن أنفسهم من عنائها ، وذلك بالتمتع بسمائها الصافية ، وأشجارها الباسقة ، ومناظرها المتناسقة . وقد زار من مدن إيطالية فلورنسة ، واجتمع فيها غير مرة بأعظم علمائها وهو غاليلو ، ومنها عرج على رومة وهى العاصمة ، والمثابة المزيزة لسائر أنواع الفن ؛ ثم سار منها إلى نابولى ، وهناك قرع سمعه نبأ الحروب الداخلية التى شبت فى انكلترا عن اصطدام حق الملوك الالهى برغبة الشعب الملحة فى الحصول على حقوقهم كاملة غير منقوصة ، ولهذا فانه لم يتم رحلته بل رجع إلى وطنه وهو يقول : إنه لمن المزرى بالرجل أن ينشد الراحة فى السفر ، بينما مواطنوه يجالدون فى سبيل حريتهم

ملتون والسياسة

وبرجوع ملتون من رحلته تبتدئ حياته السياسية ، وهى دور ملىء بالجهود الجبارة والأحداث الخطيرة ؛ ولئن كان إذ ذاك مأخوذاً بنزق الشباب وتهور العاطفة إلا أنه أظهر فى ميدان السياسة من الحنكة والدهاء والمرونة الدبلوماسية ما لا طاقة على مثله إلا لذوى النبوغ والعبقرية . كان حبل السياسة إذ ذاك مضطرباً بين حق الملوك الألهى وبين ديمقراطية الشعب ؛ وأحياناً بين البروتستنتية المصلحة ، والكاثوليكية المبالغة فى المحافظة على تقاليدها — ولو بليت — وكان ملتون خصم الملكية اللدود ، وعدو البابوية الأزرق ، فلا عجب إذا انهال عليهما بكثير من الامتهان والزراية ، أو تسقط لها كل ما من شأنه أن يحط من جلالها أو ينال من عظمتها

لقد ناهض الملكية كثيراً ، وقاومها مقاومة عماء الجبين ، حتى أنه لم يدع سانحة تمر إلا اهتبلها متندداً بعيوبها ومثالبها ،

شاهراً ظلمها ومساوئها ؛ كما ناصر الطهريين كثيراً في تقويض دعائم الكاثوليكية . والطهريون فى ثورتهم على الكاثوليكية ومن ورائها الملكية ، أشبه ما يكونون في التاريخ العربي بالخوارج فى ثورتهم على العلويين أولا والأمويين ثانياً ؛ ووجه الشبه بينهما اختلاط الدين بالسياسة فى مبادئهما . وما مبادئ الطهريين التى هبوا متشمرين للنضال السياسى فى تحقيقها ، إلا صورة من المبادئ الوهابية فى جزيرة العرب . ولقد كانت الدعوة الطهرية فى بادئ أمرها دينية محضة ، أي كدعوة الخوارج إبان خروجهم على علي ، ولكنها — كثيلتها — لم تلبث أمام أرستقراطية الملوك أن تنكرت لهم ، واصطبغت لمجالدتهم بالصبغة السياسية ، فقد ناهض الطهريون الملوك مناهضة عنيفة ، وأنكروا عليهم حقهم الآلهي فى السيادة والسلطة ، وانتزعوا لفظه من أفواههم بعد أن كانوا يتشدقون بمضغه تشدق من يمضغ لقمة دسمة . وما انتصار النظام الدستورى فى انكلترا وانهيار دعائم الملكية إلا رمزاً لانتصار المبادئ الديمقراطية على الأرستقراطية ، بل صورة لانتصار الطهريين على جميع منافسيهم ، ذلك الانتصار الذى أملى على ملتون ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود ، وهي صورة حية لما كان عليه الدين إذ ذاك من التبلبل والانقسام ، تطلعنا على مدى ما وصل إليه الطهريون فى جهادهم لتدعيم أسس حرية الشعب الدينيه والسياسية تلك الحرية التى أنجبت أمثال دن ، وبنيان ، وملتون

ومن كتابات ملتون السياسية رسالته المعروفة : بـ Tenure of King and Magistrates وقد كتبها عام ١٦٤٩ دفاعاً عن إعدام الملك — ذلك الإعدام الشنيع الذى صوره فيما بعد بصورة ترتعد منها الفرائص وتقشعر لها الأبدان فى كراسته المعروفة بـ Eikon Basilike

وإذ كان ملتون ظهيراً لكرمويل ومساعداً له ضد الملكية الظالمة ، فقد عينه هذا بعد تسنمه سدة الحكم بمدة وجيزة — أى عام ١٦٤٩ — ترجماناً له فى قسم السكرتارية اللاتينية ، وكان عمله ترجمة جميع الدواوين والرسائل إلى اللغة اللاتينية ، إذ كانت اللاتينية إذ ذاك هى اللغة السياسية الوحيدة المتفق عليها بين جميع دول أوربا

« يتبع »

خليل محمد الطوال

أبحاث تاريخية جديدة

الإسلام فى غرب أفريقية

مدى انتشاره فى تلك الأقاليم ومبلغ أثره فى الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تتمـــة

ولقد حمل إليهم الإسلام أيضاً نظام الحكم الديموقراطى . ذلك أن نظام الادارة فى الاسلام نظام ديموقراطى — لا فارق بين رجال الدين وعامة الشعب — فرئيس المقاطعة هناك هو اللمان Liman (ويبدو لى أنها محرفة عن لفظة الامام العربية) ويختار من بين أفراد الشعب ، وكل الصفات التى يراعيها الناس أثناء انتخابه هى أن يكون على خلق طيب وأن يكون ملماً بالقرآن إلماماً لا بأس به . ومن وظيفته أن يؤم الناس فى الصلاة . وليس هناك نظام مركزى يوحد بين هؤلاء اللمانز Limans ، فكل منهم مستقل فى إدارته . ويزود اللمان هو والمالم Malam (وأرجح أن أصلها معلم ، فوظيفته تعليم الناس ولا بد أن يكون على علم ولو قليلاً بالقرآن) بما يقدمه الناس لهم من عطايا عن طيبة خاطر . ومهمة هؤلاء المعلمين Malams تعليم الصغار ؛ غير أنهم أكثر اعتمادهم فى الكسب على التمائم التى يقدمونها للناس . والمعلمون كذلك أطباء يستخرجون الأدوية من جذوع الشجر وأوراقه . ومعظمهم طفيليون على المجتمع ، بل إن بعضهم يستخدم تلامذته لسؤال الناس . وكثير منهم ممن ذهبوا إلى مكة وحجوا البيت الحرام يشاع تقديسهم ؛ وهم يستغلون هذه الاشاعات الخيالية طول المدة الباقية من حياتهم . ولكننا برغم هذا لا نعدم أن نجد بين هؤلاء المعلمين من يحيا حياة كلها تقوى وورع وسعى لنشر العلم . وفى معظم الولايات الاسلامية تقام الصلاة كل يوم كما يحتفل المسلمون بعيدى الفطر والأضحى إذ يسمونهما (Karamin Salla & Baban Salla) أى العيد الأصغر والعيد الأكبر